تحدي الاحتلال في رواية الأرض المحتلة..

وليد أبو بكر

القسم الأول

(١)

كتب عاموز عوز في كتابه (بكائيات أحد قدامى الصهيونيين) يقول: أخرج إلى العمل في الرابعة أو الخامسة صباحاً... في هذه الساعة، تصبح «الدولة عربية»... العرب يبكرون إلى العمل، واليهود يواصلون النوم... في زمن الانتداب، كنت أحلم بأن نقيم دولة عبرية، وأن نكون حقاً شعب الله المختار.

هؤلاء العرب، الذين يحتلون الدولة صباحاً، هم عرب الأرض المحتلة، الذين أفشلوا حلم العدو في إقامة دولة عبرية نقية، ولذلك فإن العدوّ يمارس ضدهم كل وسائل الإرهاب، حتى يجبرهم على الخروج من أرضهم، لتخلو له.

وقد أشارت روايات الأرض المحتلة إلى تنوع هذه الممارسات، من محاولة التجهيل، بالحرمان من التعليم، ومن نشر البطالة، بقصر أبواب العمل على ما يدعم الاقتصاد الصهيوني فقط، وبمصادرة الأراضي، حتى يتحوّل الفلاحون العرب إلى عمال، وبهدم البيوت، ومنع الحركة دون تصريح من الشرطة، وفرض الاقامة الجبرية على الأفراد، وفرض منع التجول على الجماعات والمناطق، وترحيل الناس ـ لأدنى الأسباب ـ خارج وطنهم، بالاضافة إلى تضييق سبل العيش، عن طريق الضرائب التي تتنوع باستمرار وتزداد، كما يزداد الغلاء يوماً بعد يوم، وينخفض سعر العملة يوماً بعد يوم.

ثم تتصاعد هذه الممارسات تدريجياً لتصل حدود الاعتقال، والتعذيب وأحكام السجن، وكثيراً ما تصل إلى القتل.

(٢)

وكان العدوّ الصهيوني قد اجتذب اليهود إلى فلسطين عبر ثلاث دعاوى، الأولى دينية، وتنطلق من مقولة «أرض الميعاد» التوراتية، التي تجذب المتدينين، والثانية هي تضخيم المآسي التي تعرض لها اليهود، خاصة في أوروبا، على أيدي النازية، حتى يفقد اليهودي الأمان، ويرحل، والثالثة هي الزعم بخلو أرض فلسطين من السكان، وبحاجتها إلى اليهود لإعمارها.

وبسبب هذه الدعاوى، وصل اليهود إلى فلسطين من شعوب مختلفة، بلغات مختلفة، وثقافات مختلفة، لم يكن من السهل أن يتشكل منها مجتمع متناسق. لذلك جاء المجتمع الصهيوني مليئاً بالتناقضات، التي حاول أن يحلّها عن طريق النفخ في العداء مع العرب، حتى يشعر الناس بأنهم يقفون على حافة الخطر كل يوم.

وقد فوجيء اليهود بأن الأرض التي وصلوا إليها لم تكن خالية من السكان، وبأنه كان عليهم أن يواجهوا سكانها، وأهلهم وقومهم خارجها، مواجهة مستمرة. وقد استغلت السلطة هذا الواقع لصالحها، خاصة وأنها من يهود الغرب (الأشكناز) الذين حملوا معهم الروح العنصرية النازية، وبنوا مقولات القومية اليهودية من مفاهيمها.

وقد اتخذت العنصرية طابعاً واضحاً في الكيان الصهيوني، فتوجهت إلى العرب، كارهي اليهود دائماً كما تقول الدعاية، ثم توجهت من اليهودي الغربي إلى اليهودي الشرقي (السفارديم) فبدا التفاوت في مستوى المعيشة واضحاً داخل المجتمع، مما اضطر السلطة إلى إشغال الناس عن هذا التفاوت، بتوجيه الكراهية إلى العرب من ناحية، وبافتعال الأخطار والحروب من ناحية أخرى، حتى يبقى الاحساس قائماً بأن الجيش هو الذي يحمي الناس، ويضمن لهم الأمن، مما حوّل السلطة إلى أيدي المؤسسة العسكرية. وحتى تحافظ هذه المؤسسة، ومن يستفيد من وجودها، على الامتيازات، فإنها تستخدم ما تستخدمه أية مؤسسة عسكرية من ممارسات مباحثية، تتوجه إلى عرب الأرض المحتلة، ولكنها لا تغض الطرف عن أية معارضة. كما عمدت هذه المؤسسة العسكرية إلى تضخيم دورها، واستفادت من انتصاراتها العسكرية، التي اقنعت الناس من خلالها بأن يدها الطويلة تستطيع أن تصل إلى حيث تشاء.

(٣)

أمام هذا القدر من الأرهاب، الذي لا يزيده الضعف العربي إلا عنجهية، كانت استجابات العربي تحت الاحتلال، متنوعة إلى حدّ كبير، فهي ـ حين تكون سلبية ـ تتخذ شكل الخضوع القدري، أو تتخذ شكل الهروب من الواقع القاسي إلى الجنس، أو السكر، أو

الجدل الفارغ، أو التلهي بالألعاب التي تقتل الوقت على المقاهي.

وتكون الاستجابة سلبية في غياب الوعي، وقد تصل حدود محاولات التكيف التي يمارسها الانسان، مثل تغيير الاسم لإخفاء الهوية، وتعلّم لغة العدو. وقد تتحول محاولة التكيف هذه إلى نوع من الانتهازية، تجيء من غير وعي، أو تجيء بوعي واضح. وقد يصل هذا التكيف حدود الخيانة في بعض الحالات، عن طريق التعاون مع سلطات العدو.

لكن حالات الاستجابة السلبية لا تلبث أن تكشف لمن يمارسها بأنها لا تفيد، لأن هدف العدوّ الأخير هو تفريغ الأرض من أهلها ابقى له، وحين تصل القناعة هذا الحدّ، يكون الواقع قد نضج، من أجل استجابة إيجابية، تحمل معنى التحدي بكلّ درجاته.

(١)

من خلال دراسة الواقع، يستطيع العربي تحت الاحتلال أن يدرك أن هذا الواقع لا يسمح إلا بالصراع، فالمحتل، على لسان أحد جنوده، ينصح المرأة العربية وهي تبكي من ظلمه: وفّري مجهوداتك لما بعد النكبة والنكسة. وفّريها للوكسة، طالما ظلّ أمثالك بيننا[١]. وتأمّلُ هذا الواقع يجعل «أمير» يقتنع أن علاقته بروتي لا يمكن أن تكون طبيعية، إلا إذا غمسا رأسيهما في الرمل، فأية علاقة يمكن أن تنمو في الظرف الراهن؟ وشعبها في حالة هجوم مستمر على شعبه، وشعبه في حالة مقاومة مستمرة[٢]؟ وحين يفكّر العربي المنكوب، بلقاء يهودية منكوبة، فإن ساعاتها لا تلتقي، لأن شيطاناً هو الذي يديرها[٣]، وتصبح قناعة العربي المنكوب واضحة، حتى من وجهة نظر اليهودي المنكوب: إن لقاءه بدنيا يعني فراقنا نحن[٤٤]، ولا تقلّ هذه القناعة عند العربي الذي خدع، فيضطر إلى الاعتراف بأنه كان غبياً، وخدع نفسه كل عمره[٥]. فلا يبقى أمامه إلا أن يفهم: من مكاني هذا لا أستطيع إلا أن أصعد. ما من منفذ سوى الصعود[٦].

والصعود في هذه الحالة يعني شيئاً واحداً: إعلان الصراع ضد العدوّ. وهو إعلان قائم منذ البداية، لأن العربي الذي بقي تحت الاحتلال، يشكل ـ بوجوده ـ تحدّياً للاحتلال، وهو تحدّ لا يبقى صامتاً، إنه يتصاعد درجة بعد درجة، حتى يصل إلى الكفاح المسلح.

أول درجات مقاومة العدو إذن، هي الاصرار على البقاء في الأرض، حتى وإن كان هذا البقاء نوعاً من السحر[٧]. وقد أكدت رواية الأرض المحتلة على هذا الاصرار، وقدّمت في ذلك نماذج كثيرة، كانت أم الووبابيكا من أغناها، فقد أصرت على البقاء مع والدتها المقعدة حين نزح زوجها وأخذ أولادهما معه، في سفر الخروج الأول[٨]، وكان إصرارها على البقاء يبرّر بسؤال كبير لمن يسألونها: لماذا كان من المعقول بقاؤكم أنتم أنفسكم؟ أما لماذا بقيت، فقد اتضح الأمر، لقد بقيت لتجمع الذكريات التي تركها أهلها ورحلوا، وهي واثقة من أنهم سيكونون في حاجة إليها، بعد نسيان عشرين عاماً، ومع «العودة» التي جاءت عبر سفر الخروج الثاني. ومثلها أيضاً بقيت المرأة العجوز في لوحة (الخرزة الزرقاء..) واحتفظت لابنتها بالخرزة الزرقاء، ولحفيدتها بثياب ابنتها، وبذلك احتفظت بالذكريات، وبالأمل في أن يعود الغائبون ويعيدوا الماء إلى عين الماء[٩]. وبالطريقة نفسها بقيت (إخطية) تحافظ على المكان، وتنتظر صحوة أهله ستة وثلاثين عاماً، لأنها لا تتألق، إلا بمن يحبونها[١٠].

وهذا الاصرار هو الذي جعل أم سعد تبقى في مكانها، ليجدها المتشائل، حين زارها، ما زالت تكنس بمكنستها المصنوعة من عيدان العليق[١١]، وهو الذي جعل بعض العرب الذين رحّلهم العدو يختبىء بين الخرائب، وبين الأعواد، فلا يصل إلى الحدود الأردنية، بل ينتظر حتى تعتم، وينام النهار، ويعود أدراجه، «فعادوا وطردوه، فعاد، فعادوا وطردوه، فعاد، إلى يومنا هذا»[١٢]، ليكتشف الجميع «أن الفلسطينيين لا يعجزون عن العودة إلى بلادهم»[١٣]. وهو، بعد ذلك، الذي حمل أسامة الكرمي على العودة، وحمّله لواء الدعوة إلى الصمود.

وقد ارتبط هذا الاصرار كثيراً بالحنين الذي غطّى حيزاً كبيراً من رواية الأرض المحتلة، رغم أنها تصوّر أناساً يعيشون فوق أرضهم، كما ارتبط بذكريات هؤلاء الناس، في الماضي. وحبّهم للأرض، وما علق بها، وغزلهم بها، تاريخاً ومكاناً وعادات، تجعل خفقات قلب عبد الكريم تشتد، لما أدرك أنه مطلّ على شارع عباس[١٤]، وتجعل الأستاذ «هم» يتعب وهو يحاول أن يستعيد الذكريات، حتى يعيد الروابط بماضيه. فينتشل نفسه من حاضرها[١٥]، وهو الذي يجعل فتاة في السجن تقول: ما أحلى هواء السجن، سجن الرملة، ليس مثله هواء نتانيا[١٦].

ولا شكّ أن الحاضر، الذي يحول دون «حرية الحنين إلى هذه البلاد، في هذه البلاد»، هو الدافع إلى مزيد من الحنين، والارتباط بالأرض، تحدياً، فالصديقة الحيفاوية في السجن، تشعر بأنها لاجئة في بلاد غريبة، وهي لا تشعر بالوطن، إلا حين تجلس في الليل قبل النوم إلى جانب والدتها على الفراش، وتحدثها والدتها عما مضى من أيام.. حتى يتحوّل المستقبل الذي تحلم به إلى الماضي[١٧]. لذلك فإن الذكريات ليس تعود إلا إذا ادلهم الواقع، حتى لا يرى الانسان أمامه بصيصاً من نور، ولا يرى من مخرج[١٨].

وتكاد روايات الأرض المحتلة أن تتحول إلى أناشيد في حبّ الأرض، والارتباط بها، كلاً وأجزاء، حتى لا تتحول الأرض وأصحابها إلى مجرد ذكرى، كما يريد العدو، حينما يتذكر أنه كان له جيران عرب في طبريا مثلاً[١٩]. أو ذكرى سيئة، بسبب الدعاية، تجعل من يقتنع بها يتمنى على الله ألا يعيد أيام العرب[٢٠].

ورواية (اخطية) بكاملها تلخيص لمثل هذا الحنين، فهي ترصد تاريخ مدينة حيفا، منذ نشأت، حتى سؤال العدو عن أهلها: هل عادوا؟ وهي لا تكتفي برصد ما هو عام، وإنما تدخل في الحياة، وفي الجزئيات الصغيرة، بدءاً من الشكل الجغرافي الذي تغير، فانحسرت الأشجار، وحلّت محلّها كتل من الأسمنت، مروراً بالعلاقات الخاصة، وبالدقيق من الذكريات، حتى لو «أن الحنين نبت على الشجر فاكهة لكان اليوسف أفندي»[٢١]، وحتى يصبح الحنين إلى «التمرية» شبيهاً برثاء لها: تمرية يا تمرية، في أي مخيم لاجئين في بلاد العرب حطت بك الرحال؟ أم أصبحت هناك، كما أمسيت هنا، مجرد ذكرى[٢٢]؟

وقد وظفت الروايات هذا النوع من الحنين توظيفاً إيجابياً، فهو مرة يطرح في وجه العدو سؤالاً لا يملك له إجابة منطقية: هذا غير معقول، قلتم إنكم لم تفقدوا الحنين إلى هذه البلاد رغم غربة ألفي عام، فكيف تتوقعون أن يفقد شعبنا الحنين إلى هذه البلادبعد غربة ربع قرن فقط؟[٢٣] وهي بعد ذلك تجيء مرات على شكل إصرار على البقاء، ونضال في سبيل إعادة الماضي.

يبدأ هذا النضال من خلال القناعة التامة ـ التي تصل حدود الايمان ـ بأن الاحتلال لن يدوم[٢٤]، وهو قد يأخذ شكل الايمان القدري، لأن الله يحبنا ولا يحبّ اليهود، ولذلك سيحمينا منهم[٢٥]، ثم يأخذ شكل الأمل الذي لا يخبو، والذي تعززه روافد واقعية وتاريخية، تقف في مقدمتها تجربة الصليبيين، الذين احتلوا عكا، وبقيت في أيديهم ٨٣ عاماً حتى حرّرها صلاح الدين بعد وقعة حطين... ثم عادوا فحاصروها مدة سنتين كاملتين... فأكره الجوع أهلها على الاستسلام بشروط قاسية.... وظلت عكا في أيديهم قرناً كاملاً، حتى حرّرها القائد المملوكي قلاوون[٢٦]. وهذا الأمل، تعزّزه قوة الارتباط بالأرض، التي تجعل ظلّ صاحبها يزداد طولاً حتى يختلط مع ظلّ أمه في الشمس الغاربة، «فصارا أطول من سهل عكا. فظل الحاكم ينتظر اختفاءهما، وظللت أنا أنكمش، حتى تساءل مذهولاً: متى يغيبان»[٢٧]؟

وتبدو هذه الغيبة مستحيلة، إذا قارنّا عملاق الأرض، بعدوّه الذي يصغر، حتى أن المتشائل، المنكمش خجلاً مما يفعل، والخائف أيضاً، عندما ينزل عن الحمار، يرى نفسه أطول قامة من الحاكم العسكري[٢٨]، وحتى أن الرجل الكبير حين ينتفض واقفاً، لا يزيد طوله سوى شبر[٢٩]، وحتى أن قادة الكيان الصهيوني يتحولون ـ في نظر العربي ـ إلى مخلوقات قزمية «طول الواحد منهم نحو خمسة أشبار أو أربعة... شكلاً واحداً وقداً واحداً» فإما أن يكونوا في شكل بن جوريون صغير، أو في شكل ديان صغير[٣٠]. أما من جاءوا بعدهما، فلا أمل لهم حتى بهذا التقزّم.

والإحساس بطول الظل في مواجهة الأقزام، يخلق نوعاً من التحدي اليومي، الذي يصرّ على عروبة الأرض والمكان منذ القديم، فالمسعودي ـ مثلاً ـ زار قرية يقال لها ناصرة من بلاد اللجون[٣١]، والمرج هو مرج ابن عامر لا سهل يزراعيل[٣٢]، ونابلس ليست شخيم[٣٣].. وهكذا.

وقد حفلت رواية المتشائل، بمجموعة من أسماء القرى العربية التي هدمها العدو، وكان واضحاً أن ذكر هذه الأسماء يهدف إلى المحافظة عليها حتى لا تضيع، كما حفلت رواية (أخطية) بالأسماء العربية لشوارع حيفا وبعض المؤسسات فيها، في مقابل الأسماء التي استجدت، للغرض ذاته.

(٢)

مع هذه القناعة، يستطيع العربي تحت الاحتلال أن يواجه دعاوى أرض الميعاد الصهيونية بالسخرية منها: ما أقوى ذاكرتهم[٣٤]! لأنه يحسّ بأن حقّه أقوى، ويرى أن بقاءه يعني جلاء عدوّه، فسكان شارع عباس اليهود ـ مثلاً ـ يجلون عنه، الواحد بعد الآخر، منذ أن أخذ سكانه العرب بالتكاثر[٣٥].

ويدرك العربي تحت الاحتلال أن في تكاثره نضالاً أيضاً، لأن عدوّه المحتل يحسّ بالرعب منه، لدرجة أن المتشائل، أدرك أن تحديد النسل هو من مقومات الولاء[٣٦]، فلم ينجب غير ولد واحد، ولدرجة أنه قد ترامى إلى مسامع العرب وإلى أنظارهم، بعد الظنّ بالدوافع التي تدفع العرب إلى التكاثر الطبيعي، المستكثر عليهم، حتى أصبحوا يرون أصحاب الظن يراقبونهم من خلف الشبابيك، يسترقون عليهم السمع والنظر، ويحصون عليهم كل نأمة، ويحسبونهم لا ينامون مع نسائهم إلا بقرار يأتي من «أبو عمار». هذا إذا كان النائم مرموقاً. وإلا فعلى الأقل من «أبو جهاد». وأنها، في الحالتين، لثورة حتى النصر[٣٧]، ولدرجة أنّ شحادة ـ الانتهازي ـ كان يتساءل بحنق: بأي حقّ خلف زهدي كل هؤلاء الأولاد[٣٨]؟

لقد صارت «كثرة الأولاد» حالة طبيعية في حياة الفلسطيني تحت الاحتلال، وهم يملأون السهل والجبل[٣٩]، ويملأون كل حارات المدن الضيقة، ليشكلوا أحد عوامل الازعاج التي يتعرف لها الاحتلال[٤٠]، وليشكلوا بالتدريج جيلاً جديداً يستطيع أن يخطو خطوات أوسع في التحدّي، فيكثر الناس، والبلد تكبر، ليكبر الغزو من الداخل.

وكلما زادت نسبة العرب في المجتمع، زاد ظهورهم، وهو بالتأكيد أمر مزعج للكيان المتعصّب، خاصة في إطار العمل، ورغم تحفظ بعض الروايات على العمل لدى اليهود، إلا أن هذا لا ينفي أنه يشكل إزعاجاً للصهاينة، لدرجة أن واحداً منهم يصرخ: اخجل على نفسك، ألا يكفي أنك تشغل العرب؟ ألا تدافع عنهم أيضاً؟ لا شكّ بأنك تحبّهم. تحبّ العرب. قل ذلك بصراحة. إنهم يقتلون أبناء شعبك وأنت تحبهم[٤١].

وعمل العرب يتحول في بعض الحالات إلى نوع من الدفاع عن النفس، فبعد التطويق ـ مثلاً ـ تتوق أراضي اليهود إلى أيدي العرب الماهرة، فيتوسطون لفك الطوق[٤٢].

لكن العمل يتحول إلى قيمة هامة عند إميل حبيبي، حين يشير إلى أنه يساعد على البقاء في الأرض: «ولقد رأيتهم في ساحة العجمي بيافا، شباباً في عمر التمر، من غزة وجباليا وبيت لاهية وبيت حنّون ودير البلح وخان يونس ورفح.... فآمنت بأنّ الأحياء يستطيعون هم أيضاً. أن يبقوا في وطنهم. ورأيتهم في ساحة باريس (ساحة الحناطير، فالخمرة في الزمان الأول)، في حيفا التحتا، شباناً في عمر نوارة اللوز والمشمش اللوزي والتفاح أبي الخدّ الأحمر، من قلقيلية وطولكرم وجنين وطوباس والسيلة واللبّن... فآمنت بأنّ هذا الشعب لا يفنى»[٤٣].

ولا شكّ أن إميل حبيبي تعامل بسخرية شديدة مع الذين يعملون لدى اليهود. كما أدانت (الصبّار) مثل هذا العمل. ولكن الرواية ـ عموماً ـ اعتبرت العمل ـ على إطلاقه ـ نوعاً من مقاومة البطالة التي تحاول سلطات الاحتلال أن تنشرها، مما يساعد على الصمود، وخاصة حينما تتجه طموحات الشباب إلى المهنة الحرة[٤٤]، التي لا تتيح للعدوّ أن يستعبد صاحبها.

إن أهمية العمل ـ أيضاً ـ تكمن في أنه يغيظ العدو المحتل، خاصة حينما يتحول إلى انتصار حضاري، ينفي مقولاته عن تخلّف العرب.

ويحطم أوهام الصهيونيين القدامى والجدد، عن فرضهم لحضورهم الحضاري. وحين يتحدث سلمان ناطور ـ خارج إطار الرواية ـ عن الحضور العربي، تبدو نغمة الفخر: لقد أجمع نقاد السينما أن محمد بكري.. من قرية البعنة، هو أفضل ممثل سينما في «اسرائيل»، وأجمع نقّاد المسرح أن «مكرم خوري» و «يوسف أبو وردة» العربيين من حيفا، هما أفضل ممثلين على المسرح. وأجمع نقاد الأدب أن «المتشائل» لأميل حبيبي الكاتب العربي من الناصرة هو أفضل كتاب. وأجمع محرّرو الصحف الرياضية أن «زاهي أرملي» العربي من شفا عمرو هو أفضل لاعب عربي في «اسرائيل»[٤٥] ومحمد بكري عامل بناء ـ وهكذا فإن اقتلاع هذا الجزء الواعي من هذا الشعب الواعي هو عملية مستحيلة، وسيكتشف العدو أن هؤلاء الذين تعودوا أن يبكروا إلى العمل هم الذين سيبكرون إلى ورشة بناء الحضارة، ومن يبني بسواعده الجسور على الطرقات المعبدة، هو القادر على بناء جسور السلام والمساواة والحرية، لأن من تعود على «العمل الأسود» ويؤمن بقيمته الانسانية، هو الذي سيقوم بالعمل الأبيض، والأبيض حقاً، فهو الذي سيقلب الأمور رأساً على عقب[٤٦]. كلّ هذا في وقت يتقلّص فيه حلم «الدولة» بأن تمتد حدودها إلى حيث يصل المحراث، ليصبح الامتداد إلى حيث يصل المدفع.

هناك إذن إحساس بالقيمة الانسانية للعمل. وهناك أيضاً توجيه للاختيار، في ظل ما تتيحه ظروف الاحتلال، ولذا نرى أن الذين يعملون في أعمال تساعد اقتصاد العدو، أو توفر جهده للحرب، غالباً ما يدينون أنفسهم، ويدينهم الناس. فتنزلق معنوياتهم إلى مهاوٍ لم يعرفوها من قبل[٤٧]، ولذلك يحاولون الخروج من هذه المهاوي، فعادل الكرمي ـ مثلاً ـ يترك العمل، ويتجه إلى الصحافة (وهي مهنة حرة من ناحية، وتتيح له وسيلة للنضال من ناحية أخرى)، بينما يرتدّ زهدي إلى الدفاع ـ بالسلاح ـ عن أسامة الكرمي، الذي كادت عمليته ضد باصات إيجيد، التي تنقل العمال العرب، أن تقتله، ويكون ثمن هذا الدفاع، أن يسقط شهيداً.

وتبدو قيمة العمل واضحة، حين تكشف الروايات عن تخاذل المحتلين تجاه العمل، وهو تخاذل يقدم منه إميل حبيبي صورة شديدة السخرية، شديدة الايحاء أيضاً، بسبب ارتباطها بالمعتقد الديني المتطرف. يقول إميل حبيبي وهو يروي على لسان المتشائل حكاية انتشرت بين ذوي «العمل العبري النقي»: «إن آباء زخرون يعقوب اختلفوا يوماً: هل من الحق، شرعاً، أن يعاشر الرجل زوجه في السبت، أم أن الأمر عمل، مثله مثل بقية الأعمال التي لا تجوز في السبت، شرعاً، فذهبوا إلى الحاخام ليقضي بينهم، هل الأمر عمل أم لذة؟ ففكر الحكم طويلاً، ثم حكم أنه لذة. فهات برهانك؟ قال: لو حكمت بأنه عمل لأعطيتموه العرب»[٤٨].

(٣)

خلق الاحتلال ظروفاً جديدة، ساهمت في تغير الأدوار داخل المجتمع، وكانت ظروف العمل هي الأكثر فعلاً في هذا التغيّر، خاصة وأن العمل الجديد المتاح لم يكن مناسباً لبعض الطبقات السابقة، مثل ملاّك الأراضي، الذين يحارب الاحتلال ملكيتهم وهو يحاول الاستيلاء على الأراضي. وتحويل العرب إلى عمال، مما يجعل هذه الطبقة تنتعش.

وقد اهتمت رواية الأرض المحتلة اهتماماً خاصاً بمتابعة هذا التغير، فأشارت (السداسية) مثلاً إلى الطبقة البورجوازية التي ظلّت تمارس، تحت الاحتلال، امتداداً لحياتها السابقة، فلا تدخل سيارة ممثلها الحارة، إلا حين يحل العيد الكبير قبيل الانتخابات البلدية[٤٩]. كما أن محامي الأمة، في (إخطية) سار على خطى والده في استغلال الظروف، والاستفادة منها، وهو ما يفعله أقرانه ممن ظلوا من بقايا طبقة كان أفرادها أول الراحلين بنعمة سياراتهم الخصوصية. ومثله فعل المحامي عصام الباذنجاني في (المتشائل).

أما عائلة الكرمي فقد رصدت (الصبّار) تفسخّها حتى درجة الموت، لأن وجود مالك الأرض، مناقض للاحتلال تماماً، ولأن ظروف العمل التي أوجدها الاحتلال، لا تسمح ببقاء الملكية الكبيرة، وكذلك ظروف التطوّر النضالي.

إن ممثل العائلة (أبو عادل) مريض منذ البداية، يتسلّى بأحاديثه الصحفية التي لا تنجز شيئاً، ويعيش بفضل الآلة التي تعوّض عمل كليته، بينما يهجر العمال مزرعته فتخرب، وتنتهي إلى المصادرة (في عبّاد الشمس). ويتجه ولده عادل إلى العمل لدى اليهود، حتى يعود له وعيه فينتقل إلى الصحيفة (في عبّاد الشمس). وقد برعت الكاتبة في تصوير انهيار (أبو عادل) الاقطاعي، الذي بدأ بما يشبه الشلل، ثم انتهى بالموت، على يد ابنه، الذي لم ينقل الآلة خارج البيت، قبل هدمه، بينما كان والده في المستشفى، فهذا الموت يبدو طبيعياً لمثل هذه الشخصية، لأن الاحتلال يركز عليها من ناحية، ولأن دورها قد انتهى في مثل هذه الظروف ـ علمياً ـ من ناحية ثانية. كما أتقنت الكاتبة رسم شخصية نوار، الابنة الوحيدة في العائلة، التي تحبّ مناضلاً أودع في السجن إلى أجل غير معلوم، ولم تكن تملك النفس الطويل، فملت الانتظار، لأنه أصبح سجناً، وهي ما عادت فتاة حالمة كالسابق، ولذلك باتت تحلم بالهرب[٥٠]، وهو أمر طبيعي بالنسبة لفتاة من هذه الطبقة، لكنّ الأمر غير الطبيعي هو أن تجعل الكاتبة هذه الطبقة تنجب مناضلين، مثل عادل الكرمي، بعد أن ترك العمل لدى اليهود، وباسل الكرمي، الذي تحوّل إلى جزء من طليعة الكفاح المسلّح، دون أن يملك ـ واقعياً ـ ما يؤهله لذلك. ودون أن تفسّر الكاتبة كيف يمكن أن يحدث مثل هذا التحوّل، في طبقة تموت، ولا تستطيع أن تنجب إلا من يرحل، أو من يتكيف، خاصة وأن تحوّل (باسل) قد حدث وهو صبي مدلّل، مهنته التباهي والكذب، وفترة اتصاله بأسامة الكرمي ـ المعبأ ثورياً من الخارج ـ لم تطل، وفترة سجنه الأولى لم تكن كافية لإعادة بنائه حتى يخرج عن طبيعة طبقته.

ويختلف الأمر، بالنسبة للتحوّل التدريجي الذي حدث عند سعدية، فسعدية، منذ البداية، تنتسب إلى الطبقة العاملة، وموت زوجها ـ العامل ـ زهدي، هو الذي أضطرها للخروج إلى العمل، وبسبب غياب الوعي، ومردود العمل، ولدت في ذهن سعدية تطلّعات بورجوازية، أحبطتها ظروف الاحتلال، فوعت أن هذه الظروف لا تسمح لها بتحسين وضعها، فقاومتها، وبذلك انتقلت من الموقع السلبي إلى الموقع الايجابي عبر التجربة التي تستطيع أن تخلق الوعي،

بشكل أسرع، لدى الطبقة التي تنتمي إليها، خاصة وأنها بعد أن فقدت حلمها البورجوازي لم تعد تخاف على شيء آخر.

هذا الانتماء الطبقي، بما يسنده من وعي، هو الذي يؤهل عبدالرحيم، في (الصورة الأخيرة..) ليصبح قائداً، ورغم أنه مقطوع من شجرة، فإن أكبر أبناء العائلات يعاملونه باعتباره قائدهم الحقيقي، وهو أمر لا يكون سهلاً في مثل هذا المجتمع (الفلسطيني القروي) إلا من خلال القناعة بأنه على حق[٥١]. ومع ذلك، فإن الوعي ـ العميق ـ قادر على أن يغير الانتماء الطبقي، وأن يخلق من (صالح) شخصية مناضلة بتأثير ثقافتها من ناحية، وبتأثير ظروف الاحتلال من ناحية أخرى، ولذلك لا تبدو هذه الشخصية مفتعلة في (الصبّار وعبّاد الشمس) لأنها تملك مبررات تكوينها.

ومثل هذه الشخصية، وبتأثير من الشخصيات التي سبقتها انتماء حزبياً، مثل عبدالرحيم، إنما تبشر بجيل جديد، يملك القناعة بأن يبقي أقدامه راسخة في الأرض. وأن يقاوم محتليها، بالكلمة، والحزب، والنقابة والتجمعات فوق الأرض وتحت الأرض[٥٢]، لأنهم يعرفون أنهم فقدوا وطناً كاملاً وحقيقياً بترابه وصخوره وأشجاره، بناسه ومدنه ودكاكينه وقراه وأثاثه وملابسه وقهوته الساخنة.. وطناً في حالة جيدة، وصالحة للاستعمال مئة بالمئة، لم يذهب إلى كوكب آخر، انه على الأرض[٥٣]، ولا بد لهم، وهم فيه، أن يستعيدوه.

(٤)

لم تخل رواية من روايات الأرض المحتلة من شخصية أو أكثر، من شخصيات جيل الأمل، المقاوم، وإذا كانت روايتا (الصبّار وعبّاد الشمس) قد اهتمتا بالاشارة إلى ظاهرة «أطفال الحجارة»، كظاهرة أدرك العالم من خلالها، وأدرك المحتل، أن كلّ جيل يجيء تحت الاحتلال، سيكون أكثر إزعاجاً للسلطات ممن سبقه، فان الروايات قد قدّمت شخصيات مركزية مقاومة، من الجيل الشاب، الذي بات يعي أن قدره هو أن يقاوم. وربما كان من المفيد أن نتابع بعض هذه الشخصيات في الروايات حسب أولوية صدورها، بهدف ملاحظة تطوّر أساليب المقاومة لديها، وتنوعها.

في (سداسية الأيام الستة ـ ١٩٦٨) تبدو تساؤلات مسعود وإجابات أخته «الفيلسوفة» حول حتمية الانسحاب نوعاً من المقاومة، وقد تحمّس مسعود للانسحاب. وكان واثقاً منه، رغم فرحه بأنه لم يعد مقطوع الأصل والفصل، بعد أن زاره أعمامه وأخواله من الضفة، إثر احتلالها. ويشير تساؤله الأخير (هل، حين ينسحبون، سأعود كما كنت.. بدون ابن عم)[٥٣] إلى أمل في وحدة قادمة، لا تكون بسبب الاحتلال. أما فتاة الثانوية في (العودة)[٥٤]، فقد طردها العدوّ من المدرسة، لأنها اشتركت في مسيرة، كما قام باعتقال خطيبها، الذي جاء بلدها زائراً، لأنه حمل معها اكليل زهر في المسيرة ذاتها. وكان الشابان قد تعرفا بسبب مظاهرة سابقة، في بلد الخطيب. كما أن السجن مليء بالفتيات الشابات المناضلات في (الحبّ في قلبي)[٥٥].

ويبدو الشاب «ولاء» ابن (المتشائل ـ ١٩٧٤) نموذجاً لجيل حاولوا أن يربوه على الصمت والخنوع، فانتهى إلى التمرد فجأة. وحمل السلاح، حتى يستطيع أن يتنفس بحرية، لكن تمرّده ـ كما تقدمه الرواية ـ كان مجرد اندفاع ولّده الاختناق، قبل الاعداد له، كما يفعل فتية وفتيات لم يخنعوا، تحمّلوا طول ليل، فحملوا الشمس فوق جباههم[٥٦]، ومنهم سعيد الثاني وشقيقته يعاد.

وبالرغم من أن الدروز يشكلون حالة خاصة، بسبب وهم الارتباط بالدولة، الذي زرعوه فيهم، فاحتاجوا إلى وقت، حتى يفهموا أن عليهم أن يرفضوا ضرب العرب[٥٧]. إلا أن تساؤلات سهيل عزّ الدين في (أنت القاتل يا شيخ ـ ١٩٧٦) تدخل في باب المقاومة التي يبديها الجيل الجديد، لأنها تهزّ القناعات السائدة حول الأبواب المفتوحة والمعاملة المتشابهة[٥٨]، وتكشف حقيقة الخداع فيها.

وتقدم (الصبّار ـ ١٩٧٦) أسامة الكرمي كشخصية قادمةٌ لتقاوم، كما تقدم عدداً من الشباب الذي يفعل، منهم صالح، المعتقل، وأخته لينة، التي تعتقل أيضاً، ثم باسل الكرمي، الذي يتحول إلى مقاوم صلب في (عبّاد الشمس ـ ١٩٨٠).

أما شخصية حسن الكسيح في رواية (إلى الجحيم أيها الليلك ـ ١٩٧٨) فهي شخصية «الولد» العاجز، الذي تركه من هاجروا، ليتعرض لكثير من الاضطهاد الذي يصل حدود الموت ـ والرواية توحي به ـ لكنه في النهاية يعود ليبرز مقاتلاً صلباً، يرفض كساحه الأول[٥٩]، ويرفض الاحتلال. كما تشير هذه الرواية إلى جيل جديد من اليهود، بدأ يطرح الأسئلة حول جدوى الاحتلال، وبالتالي جدوى الصراع كله، وإلى أين يقود، كما تفعل ايلانة، التي تستكمل شخصيتها في (الصورة الأخيرة من الألبوم ـ ١٩٨٠) عبر روتي، التي تستطيع خلال الحوار والاحتكاك أن تفهم. وأن تعترف بالعجز، لأنها ليست مسؤولة عن هذه الأشياء، فهي لا تدير دفة الحكم في هذه البلاد[٦٠]، ولينتهي بها تناقض الفهم مع العجز إلى الموت، وهو المصير الذي لقيته الشخصية العربية الشابة في الرواية نفسها، شخصية علي، شقيق أمير، الذي يقاوم بالقول، ويحاول أن يقاوم بالانتماء، ثم بالتعليم، ويعجز، لأن القوى التي تضطهده تغتاله.

وحين تصل سروة الشابة في (اخطية ـ ١٩٨٥) إلى قمة المعرفة، التي تستطيع من مكانها فيها أن تحرر أخطية من سجنها، ولا تجد من يجرؤ على اللحاق بها، فانها تقع فوق صخرة الاحتلال الملساء، ولكنها تترك أثراً لا يمحى، هو المعرفة التي نشرتها حولها، والتي تلخصها بقولها: أنا الجنة وأنا النار[٦١]، لتجعل من التساؤل، والتأمل، والمغامرة الفكرية طريقاً يسير فيه من بقي، فيقوده إلى اخطية، التي «لا تذهب عنكم بل تذهبون عنها. ولا يأخذونها منكم بل يأخذونكم منها. يرحلون عنها ولا يعودون. أما هي فلا تعود لأنها لا ترحل»[٦٢].

وتمثل سروة قمة الوعي بين الشخصيات الشابة في الروايات، بعد أن أخذت فكرها من جيل سبقها في التجربة، يتمثل في أخيها ومعاونه، اللذين كانا يربطان نضالها بالفكر، وبالعالم، وهما يتحدثان عن ثورة اندلعت نيرانها في مكان بعيد، ويقولان: ستبلغنا لا محالة[٦٣].

(٥)

وتركّز رواية الأرض المحتلة على الوعي كثيراً، لأن الانسان، إذا لم يفهم واقعه، وينقده لا يستطيع التوجه إلى الثورة عليه. وهذا الوعي،

بطبيعة الاحتلال، وبطبيعة القوى التي تواجهه، قادر على أن يوقف معظم أساليب التكيف، التي تصبّ في طرف الاحتلال، كما أنه، من ناحية أخرى، قادر على أن يجمع كل القوى التي تناضل ضد الاحتلال، وأن يستفيد من أقصى طاقاتها، وأن يضعها في الموقع الصحيح، والمؤثر.

ولا شكّ أن المعرفة إحدى أسس الوعي، وهي معرفة يسعى إليها العربي الفلسطيني تحت الاحتلال بكل السبل، حتى عبر المغامرة التي قد تؤدي إلى الموت، حين تقفل في وجهه سبل التعلّم، كما حدث مع علي في (الصورة الأخيرة..). ولكن المعرفة لا تجيء من خلال المدارس والجامعات وحسب، إنها تجيء عبر الاحتكاك أيضاً، في التنظيمات، وفي الأحزاب، وفي السجون.

وإذا كان سهيل عزّ الدين قد حصل على جزء من الوعي، وهو يحتك بالواعين في الجامعة، فصار يتساءل عن واقع الدروز، وعن العرب، وعن العالم وما يدور فيه من صراع[٦٤]، فإن علي قد وصل إلى هذا الوعي من خلال احتكاكه بمن سبقوه إليه، ممن يلتقي معهم في النادي[٦٥]. بالأسلوب الذي وصلت به سروة. أما السجون فقد تحوّلت إلى «مزارع رؤوس بدلاً من أن تكون مدافن كتيوشا»[٦٦]، ففيها تتم تربية الوعي لدى من يدخلونها، فيخرج باسل الكرمي مناضلاً بعد أن دخل السجن طفلاً، وتعلّم على أيدي المناضلين، ورأى صمودهم بعينيه، وسمع رأيهم بأذنيه، ويتحوّل زهدي من عامل أمي إلى قارىء، يتطوّر فيما يقرأه حتى يفهم. ويصبح هذا الفهم عاملاً في حسم موقفه وهو يرى أسامة الكرمي محاصراً من قبل أعدائه.

أما التجربة المرة التي يعيشها الانسان مع الاحتلال، فهي قادرة على أن تقوده إلى حدود الوعي، إذا لم يكن حمقه كبيراً كحمق المتشائل، الذي لم يستطع أن يفهم تمرّد ابنه الوحيد، ولا بطولة سميّه (سعيد الثاني) ولا مقولات يعاد الثانية، التي قالت له بوضوح: إذا لم يتغيروا فهي مأساتهم، أما نحن فتغيرنا[٦٧]. ثم سمع الضابط يقول لها بوضوح أكبر: لقد انتظرنا منكم أكثر مما تفعلون[٦٨]، مع أن حُمقه كله، موظف في الرواية، بهدف نشر الوعي.

هذه التجربة يجدها الانسان في كل لحظة من حياته اليومية. فهي تواجه أسامة الكرمي لحظة دخوله من الجسر، فبعد إحساسه بشيء من الاحباط، بسبب ما لاحظه من مظاهر التكيف مع ظروف الاحتلال، تذكّره زميلته في السيارة بأن هناك من لم يتكيف، حين تقول: لكنك سمعتها وهي تصيح![٦٩] وهي تجربة تغيّر معظم من يعيشونها، بدءاً من الشخصيات القدرية، كالأمهات اللواتي يزغردن، حين يصلهن نبأ استشهاد أولادهن في المقاومة، حتى تتحول الزغرودة إلى عادة في مثل هذه المناسبة[٧٠].

ولا شكّ أن الهدف الأساسي من كتابة الروايات كلها هو نشر الوعي بواقع الاحتلال، وبالتالي بأساليب مقاومة هذا الواقع، انطلاقاً من الحق الذي يصبح واضحاً في الأرض وفي الحياة، حتى يتم الانتقال من مرحلة إلى أخرى، عبرّ عنها أميل حبيبي بأسلوبه الخاص حين قال: لم نبق حميراً إلى وقت طويل، بل انتقلنا من تلك الحالة، إلى حالة استحمار غيرنا[٧١].

هذا الانتقال، أشارت الروايات إلى ملامح قياداته: إنها قيادات تملك الوعي، والاصرار، وطول النفس، حتى تصبح قادرة على التصدي للصهاينة من ناحية، وعلى خلق حالة من التفاؤل الثوري، الذي لا يدخل في باب «المخدر» بدليل أن السلطة الغاشمة تحاربه، وتدرك أنه سلاح حاد تتقطع على شفرته مشاريعها الجهنمية، مشاريع إشاعة اليأس والقنوط والعدمية القومية[٧٢].

ولأن التفاؤل الثوري، ليس مخدراً، وإنما هو دليل وعي، فإن من شروطه أنه يقف في وجه أي مخدّر. لذلك فإن أصحاب هذا النوع من التفاؤل، يواجهون بالنقد كل المظاهر السلبية التي تعوق حركة المقاومة. والروايات تنقد المستسلمين، والمتعاونين مع العدو، والذين رحلوا عن الأرض، كما تنقد الأفكار البالية التي تعوق التقدم، وتنقد واقع العرب عموماً، ومسلكهم على امتداد الوطن العربي كله، إضافة إلى ما تعلنه من إدانة لسلوك العدوّ، وفكره، ومن فهم كامل لكلّ مخططاته. إلى درجة رؤية الأعلام وهي مطوية في الصدور: «ألم يحاول المرحوم أشكول أن يحوّل الحكم العسكري إلى شيء يرى ولا يرى، فرأيناه، على الرغم من ذلك، في أوامر الاقامة الجبرية، وفي أخاديد الجرح في خدودنا؟

وقد جاءت رواية (المتشائل) بتعرية كاملة للواقع، من خلال شخص عاجز عن الفعل الثوري، خائر تماماً، ومحبط في بحثه عن ايجاد المخلّص على الأرض[٧٤]، ولذلك كانت، في معظمها، نقداً للواقع، يغطي كل سلبياته، ويهدف إلى الايحاء بنقيضه القائم فيه، من خلال سخرية مرة بدعاوى العدو، وسلوكياته، هو ومن يتعاون معه. وهذه التعرية تكشف للطرف العربي بوضوح أنه يجلس على ما يخاف منه[٧٥]، فلا يعود لديه ما يخاف منه، ويملك، بالتالي، الشجاعة التي يستطيع من خلالها أن يعترف بأنه هو ذلك الفلسطيني المسلّح، لكنه لم يتلثم، ولن يتلثم، وهي شجاعة المواجهة.

وفي الاتجاه نفسه سارت رواية (أنت القاتل يا شيخ) حين اختارت البطل السلبي، الشبيه بالمتشائل، ووضعته في التجربة التي تكشف كل ما هو سلبي حوله.

من ناحية أخرى، أشارت كل روايات الأرض المحتلة إلى جزئيات في نقد تفاصيل الواقع، فأدانت كل محاولات التكيف السلبية دون استثناء، لتوحي بنقيضها المطلوب، ثم توسعت في النقد، بتفاصيل أخرى، وتجاوزت فيه إطار الوطن المحتل، إلى امتداده في الوطن الأكبر.

وجهت الروايات ـ مثلاً ـ نقدها إلى أي خلل في المجتمع، في الداخل وفي الخارج، يعطل حركة التقدم. وقد نالت بعض التقاليد حظها من النقد، بهدف خلق البيئة الصالحة التي تتيح لكل أفراد المجتمع أن يناضلوا ضد الاحتلال. فركزت سحر خليفة في (الصبّار وعبّاد الشمس) على واقع المرأة، التي تتعرض لازدواج القمع[٧٦]، فتحرم من المقاومة، لأن خروجها عيب. وقد تابعت الروايتان جيلاً جديداً من النساء، حتى أدرك أنه بعد شرف البلد والأرض، لا قيمة لأي شرف، ولذلك فان الصبية التي تقاوم، حين يهددها العدوّ قائلاً: ما بتخافي من الضرب عرافيت، أنا بعرف على إيش تخافي. «شقت

مريولها لحدّ ما بينت صدريتها وقالت: قصدك على هذا؟ ولا على هذا بخاف»[٧٧].

كما عالج إميل حبيبي بعض الظواهر السلبية المرتبطة بالمرأة في المجتمع، مثل الحجاب، الذي اعتبره دخيلاً على تراثنا، وقال: «إن من يصرّ على إسدال هذا الخمار على تراثنا الانساني المسفر، هو ذو عقل أخف من عقل حمار، فتراثنا هذا هو ما خلّفه لنا الفَعَلة والأكارون، لا ما خلّفه لنا مدّعو الخلافة، الأكّالون النكارون. وكان سواد الشعب فَعَلة أرض: فلاحين وفلاحات. أكّارين وأكّارات. عراة إلا من مئزر وفوقه طين الأرض. فكيف ينفعهم برقع أو خمار، وأي حجاب يقيهم لظى الفاقة؟[٧٨].

كما انتقدت الروايات بعض المظاهر الاستهلاكية، مثل زيادة انتشار المقاهي في القرى[٧٩]، والتباهي باقتناء الثياب الفاخرة[٨٠].

وحين توجه النقد خارج الأرض المحتلة، فقد بدأ بالذين ارتضوا لأوطانهم بديلاً، ممن أوصى، من وجهاء حيفا العرب، مثلاً، جيرانه من وجهاء حيفا اليهود، ببيته[٨١]، ورحل، ليعمل في بلاط آل رابع في ديوان الترجمة من الفارسية وإليها، أو ليتخصص بإشعال السجائر لعاهل آخر[٨٢]. فهؤلاء الذين رحلوا، لن تستطيع عودتهم، زائرين، أن تعيد الماء الذي جفّ إلى نبعه[٨٣]، بعد أن صاحوا فيمن أصروا على البقاء: ألم ترفضوا الهجرة معنا إلى يثرب[٨٤]؟

أما العرب، فإن الحديث عنهم لا يكون إلا والراوي في (اخطية) يصمت عن السؤال. لسوء الواقع، وهو يضرس بأسنانه قهراً، ويخرس جهراً «عن قوم لا ينفكون يبلطون بحراً، فيما تجري دماؤهم نهراً، ولا يضمرون إلا لأنفسهم شراً»[٨٥]. ثم يفيض النقد، فالعرب، هم الذين جعلوا شعب فلسطين ضحية خيانة الزعماء العرب[٨٦]، حين أمروهم بالرحيل، ولم يحموا البلاد. والعرب هم الذين يجعلون الفلسطيني المشرد، يقضي سنوات طويلة من عمره في المعتقل[٨٧]. وهم الذين تهدم دباباتهم البيت الفلسطيني فوق رؤوس أصحابه، فلا يخرج من تحت الأنقاض سوى أصحاب الطويات السليمة[٨٨]. والعرب هم الذين لا يجرؤ الفلسطيني بينهم بأن يتباهى بإقامته الجبرية[٨٩]، كما يفعل تحت الاحتلال. وهم الذين يصدرون الصحف العربية في لندن وباريس، إمعاناً في إقناع العرب بأن أرض الله واسعة، وما ضيّق سوى الوطن[٩٠]. وصحفهم هي التي تطوقنا بالانتصارات الوهمية[٩١]، مع أنهم في الواقع لا يعرفون شيئاً عن حقيقة عدوهم[٩٢]، بينما يتبرعون بأسرارهم لهذا العدو[٩٣]، وهم الذين يلتزمون الصمت، حين يجب الكلام[٩٤]، ويكتفون بالادانة نضالاً[٩٥]، لأنهم يحلمون باستعادة فلسطين بقرار من الأمم المتحدة[٩٦].

وحين يتعلق الأمر بالذين يدعون النضال، دون أن يمارسوه حقيقة، فإن عمليات كشفهم، فلسطينيين في الخارج، وعرباً، تكون قاسية، واميل حبيبي يشير، بسخرية لا تخفى، إلى أن ثلاث منظمات فلسطينية، على الأقل، قد نسبت عملية الصحن الطائر وذي العباءة، أو الدشداشة، إليها[٩٧]، وهي بالطبع عملية وهمية. كما يقدم مشهد كوميديا للنضال المزيف الذي يمارسه بعض الفلسطينيين، عبر منظماتهم، في العواصم الأوروبية، فقد شارك الراوي في (اخطية) في حفل شرقي خالص، بل عربي شرقي، في شرقي القدس، لتأبين أحد رجالات فلسطين، الذي اغتالته أيد آثمة في الخارج عن عمر قضاه في الصمود والتصدي، وكان يحسب أنهم سيمضون الحفل، بين ازدراد اللقمة واللقمة، في تعداد مناقب الفقيد، وفي استشفاف الأسباب عما أصابه، وهوية المجرمين ومن أرسلهم، وعن مصير من كان يعولهم من والدين وزوجة وأولاد، ولكن ظنه خاب، فالمؤبنون انشغلوا بأنفسهم ومشاعرهم، وكشفوا، كمسؤولين عن مكاتب المقاومة في لندن وباريس عن اهتمامات لا علاقة لها بالمقاومة، إلا الاستفادة منها، وجاهة وحياة.. ومظهراً لسانياً يقول إن طريقنا نحن الفلسطينيين، طويل وشاق. وعلينا أن ندفع الثمن[٩٨]. ومثل هؤلاء، لا يختلفون عن الذين يستخدمون النضال لأغراض غير شريفة[٩٩]. أو يستخدم النضال من خلالهم، كما يحدث مع فتاة المرسيدس الشقراء، التي شغلت محامي الأمة، المتعاون مع العدو، عن رؤية الاشارة الخضراء، فآخر ما بلغنا عنها، انها تعمل سكرتيرة لمبعوث فلسطيني في عاصمة أوروبية. وقيل انها طلقت زوجها وانضمت إلى الثورة في «حول» - الخارج، بعد أن اقتنعت، تماماً، بعدالة القضية الفلسطينية، وقيل أن المبعوث المذكور مقتنع بهذا الأمر هو أيضاً. وهناك، في الثورة، من يجزم بأنها هي التي دبرت جلطة المواصلات في حيفا تدبيراً[١٠٠].

وهكذا فقد صبت روايات المقاومة نقدها على المجتمع الذي يعوق الناس عن الثورة، وعلى التخاذل العربي تجاه واجب الصراع مع العدوّ، وعلى الذين يتاجرون بالثورة نضالاً مزيفاً، وعلى الذين تركوا الأرض ورحلوا، ولا يمكن أن تكون لهم عودة حقيقية، إلا من خلال الثورة، حين يجيبون بصدق على سؤال إخطية الكبير: هل استطعتم أن تحبوا سواي؟[١٠١].

هوامش

(١) سحر خليفة، الصبار، منشورات جاليلو، القدس ١٩٧٦ ص ٥٥.
(٢) سميح القاسم، الصورة الأخيرة في الألبوم، دار ابن خلدون، بيروت ١٩٨٠ ص ٣٤.
(٣) سميح القاسم، إلى الجحيم أيها الليلك، دار ابن رشد، بيروت ١٩٧٨ ص ٨٦.
(٤) المصدر السابق ص ١١٠.
(٥) سلمان ناطور، أنت القاتل يا شيخ، مطبعة الشرق التعاونية، القدس ١٩٧٦ ص ١٢٥.
(٦) الصورة الأخيرة في الألبوم ص ١٣.
(٧) إميل حبيبي، سداسية الأيام الستة، الوقائع الغريبة في اختفاء سعيد أبي النحس المتشائل، منظمة التحرير الفلسطينية، دائرة الاعلام والثقافة، بيروت ١٩٨٠ (ونعتمد هذه الطبعة للروايتين) ص ١٦٠.
(٨) سداسية الأيام الستة ص ٢٤.
(٩) المصدر السابق ص ٤٠.
(١٠) إميل حبيبي، أخطية، بيسان برس، قبرص ١٩٨٥ ص ٢٤.
(١١) المتشائل ص ٩٥.
(١٢) المصدر السابق ص ١٠٩.

(١٣) اخطية ص ١٧ .
(١٤) المصدر السابق ص ٥٥ .
(١٥) سداسية الأيام الستة ص ٢٢ .
(١٦) المصدر السابق ص ٤٧ .
(١٧) المصدر السابق ص ٤٩ ـ ٥٠ .
(١٨) اخطية ص ٧٩ .
(١٩) المصدر السابق ص ١٧ .
(٢٠) أنت القاتل يا شيخ ص ٧ .
(٢١) اخطية ص ٢٠ .
(٢٢) المصدر السابق ص ٥٠ .
(٢٣) إلى الجحيم أيها الليلك ص ١٤ .
(٢٤) الصبار ص ١٣٤ .
(٢٥) إلى الجحيم أيها الليلك ص ١٠ .
(٢٦) المتشائل ص ٧٥ ـ ٧٦ .
(٢٧) المصدر السابق ص ٦٨ .
(٢٨) المصدر السابق ص ٦٥ .
(٢٩) المصدر السابق ص ٩٩ .
(٣٠) اخطية ص ١٥ .
(٣١) المصدر السابق ص ٣٥ .
(٣٢) المتشائل ص ١٦٤ .
(٣٣) الصبار ص ١٥ .
(٣٤) المتشائل ص ٧٦ .
(٣٥) اخطية ص ٩٠ .
(٣٦) المتشائل ص ١٣٩ .
(٣٧) اخطية ص ٢١ .
(٣٨) سحر خليفة، عباد الشمس، منظمة التحرير الفلسطينية ودار الفارابي، بيروت ١٩٨٠ ص ٦٨ .
(٣٩) سداسية الأيام الستة ص ٣٩ .
(٤٠) عباد الشمس ص ٢٦٠ .
(٤١) الصورة الأخيرة في الألبوم ص ٤٦ .
(٤٢) المتشائل ص ١٨٢ .
(٤٣) المصدر السابق ص ١٢٦ ـ ١٢٧ .
(٤٤) الصورة الأخيرة في الألبوم ص ٤٦ .
(٤٥) سلمان ناطور، حكاية لم تنته بعد، دار العماد للطباعة والنشر، دالية الكرمل ١٩٨٥ ص ١٢ .
(٤٦) المصدر السابق ص ١٣ .
(٤٧) الصبّار ص ١٣٥ .
(٤٨) المتشائل ص ١٢٥ .
(٤٩) سداسية الأيام الستة ص ٨ .
(٥٠) عبّاد الشمس ص ٣٩ .
(٥١) الصورة الأخيرة في الألبوم ص ١٧ .
(٥٢) عباد الشمس ص ١٠٥ .
(٥٣) سداسية الأيام الستة ص ١٢ .
(٥٤) المصدر السابق ص ٢٩ .
(٥٥) المصدر السابق ص ٤١ .
(٥٦) المتشائل ص ١٥٢ .
(٥٧) عبّاد الشمس ص ٢٧٢ .
(٥٨) أنت القاتل يا شيخ ص ٨٥ .
(٥٩) إلى الجحيم أيها الليلك ص ١٠٤ .
(٦٠) الصورة الأخيرة في الألبوم ص ٥١ .
(٦١) اخطية ص ٨٢ .
(٦٢) المصدر السابق ص ٧٦ .
(٦٣) المصدر السابق ص ٨٢ .
(٦٤) أنت القاتل يا شيخ ص ٢٥ ، ٣٥ ، ٨٧ .
(٦٥) الصورة الأخيرة في الألبوم ص ٤٩ .
(٦٦) الصبّار ص ١٥٨ .
(٦٧) المتشائل ص ١٩٠ .
(٦٨) المصدر السابق ص ١٩٣ .
(٦٩) الصبّار ص ٢٩ .
(٧٠) المصدر السابق ص ١١٠ .
(٧١) اخطية ص ٣٨ .
(٧٢) الصورة الأخيرة في الألبوم ص ٧١ .
(٧٣) المتشائل ص ١٤٢ .
(٧٤) فاروق وادي، ثلاث علامات في الرواية الفلسطينية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٨١ ص ١١ .
(٧٥) سلمان ناطور، كاتب غضب، مطبعة الاتحاد، حيفا ١٩٨٤ ص ٦٦ .
(٧٦) فخري صالح، في الرواية الفلسطينية، مؤسسة دار الكتاب الحديث، بيروت، ١٩٨٥ ص ٩٩ .
(٧٧) عباد الشمس ص ٤٩ .
(٧٨) اخطية ص ٥٩ ـ ٦٠ .
(٧٩) الصورة الأخيرة في الألبوم ص ١١ .
(٨٠) المتشائل ص ١٢٠ .
(٨١) المصدر السابق ص ٩٤ .
(٨٢) المصدر السابق ص ٦٣ .
(٨٣) سداسية الأيام الستة ص ٣٦ .
(٨٤) المصدر السابق ص ٢٣ .
(٨٥) اخطية ص ٤٥ .
(٨٦) أنت القاتل يا شيخ ص ٣٠ .
(٨٧) إلى الجحيم أيها الليلك ص ٣٢ .
(٨٨) المتشائل ص ١٣٦ .
(٨٩) المصدر السابق ص ١٧٥ .
(٩٠) اخطية ص ٣٧ ـ ٣٨ .
(٩١) المتشائل ص ١٨١ .
(٩٢) إلى الجحيم أيها الليلك ص ٥٤ .
(٩٣) اخطية ص ٤٨ .
(٩٤) المصدر السابق ص ١٦ ـ ١٧ .
(٩٥) المصدر السابق ص ٤٨ .
(٩٦) الصبّار ص ١٩٢ .
(٩٧) اخطية، ص ١٦ .
(٩٨) المصدر السابق ص ٣٠ ـ ٣١ .
(٩٩) المتشائل ص ٨٤ .
(١٠٠) اخطية ص ٤٤ .
(١٠١) المصدر السابق ص ٨٨ .

القسم الثاني

(١)

«إن قضيتنا مركبة، ومعركتنا متعددة الجبهات والعناصر، فهناك البعد القومي، والبعد الطبقي، والبعد الحضاري، والبعد الانساني الشامل، والبعد الفردي، ولا بدّ لي أن أنتصر في كل موقع من هذه المواقع»[١]. بهذا الوعي تنظر رواية الأرض المحتلة إلى القضية، وبهذا الاتساع يكون النضال الذي لا بدّ وأن يبدأ «طول ما أملي معايا والحب في قلبي»[٢] ما دام هناك إيمان بحتمية اللقاء، وبأن كل المشردين سيعودون[٣] منتصرين، ويلتقون في القدس، وستكون القدس عاصمة فلسطين الحرّة[٤].

وإذا كان البقاء في الأرض هو أول شرط من شروط المقاومة، فإن تطور علاقة الجماهير بواقع الاحتلال أدى إلى تحقيق شرطها الثاني وهو عدم اندماج فلسطينيي الأرض المحتلة بواقعهم، على الرغم من محاولات التذويب والقمع والتهجير[٥]، وهو أمر أكدت عليه اللوحات الست في (سداسية الأيام الستة).

ثم توسع الأمر، فصار مقاومة لممارسات الإرهاب الصهيونية، قد تكون مقاومة باللسان، أو حتى في السريرة، كما تفعل والدة أسامة الكرمي عندما يقتحم بيتها بحثاً عنه، وكما تفعل جاراتها بعد ذلك: «لا سلّم الله فيك موخز ابرة يا ابن الحرام.. الله يسمم بدنك... الله يقطع شوفتهم.. الله لا يعطيهم العافية.. ريتهم سود بجاه الرب المعبود»[٦]، إضافة إلى الشتائم التي يسمعها جنود الاحتلال، حين يحاصرون الأحياء، أو لمجرد مرورهم، في السرّ، وفي العلن، خاصة من الأطفال.

وعندما يصل الارهاب حدّ الصدام الجسدي، فانه يتحرك إلى مواجهة هذا الصدام، على المستوى الفردي. أن يعاد (الأولى) مثلاً، تقاوم الجنود الذين جاءوا لترحيلها، وتقود معركة حامية معهم، قبل أن يقذفوها على الدرج إلى أسفل، وهي تقاوم وتصرخ، وعضت كتف أحدهم فصاح من الألم، وولى بعيداً. وظلوا يدفعونها وهي تقاومهم وتركلهم حتى ألقوا بها في فناء الدرج، فهبطت على قدميها منتصبة القامة، ورأسها في السماء[٧].

أما خضرة في (عباد الشمس) فعندما قيدت إلى التوقيف دون وجه حق، فقد سحبت الباب بكل قوتها، فانسحب الجندي معه. رفع يده وهوى بها على وجهها فتصدت، وسحبته إليها، ورفسته بين رجليه فتهاوى على الأرض[٨]، وحاولت أن تحث زميلتها سعدية على الهرب، ولم تفلح.

وإذا كان هذا النوع من التصدي ينسب إلى ردّ الفعل العفوي، فهناك ردود فعل يدخل فيها التخطيط، حتى وإن كانت من باب المقاومة السلبية، فحين جاءت السلطات إلى تلك الخربة الوادعة، بالقرب من باقة الغربية، وأمرتها بأن تمنع الشيوعيين بالقوة، من عقد اجتماعاتهم في القرية، وإلا فسوف يشردون سكانها بالقوة عبر الحدود، وأرسلت السلطات المتشائل ليستطلع الأمر، دخل القرية، فما التقى إنساناً.. سوى شيخ ضرير أبلغه أن أهل القرية اجتمعوا شورى بينهم فقالوا: لا نعرف هؤلاء الشوعة ولا يعرفوننا، وليس بيننا وبينهم دم ولا ثأر، فإذا أراد الحاكم قتلهم فهو أولى بذلك منا وأقدر عليه. وإذا لم نقتلهم قتلنا الحاكم. فقرّروا أن يهجروا القرية حتى ينقضي النهار[٩].

ومع ازدياد الوعي، يدخل التنظيم في عمليات التصدّي لممارسات الارهاب، فيتم تصعيد النضال عن طريق النقابات[١٠]، أو النوادي أو الأحزاب التي تنظم المسيرات المختلفة، ضدّ الطوق، مثلاً، في الناصرة وتل أبيب. يهتفون في أثنائها: فكّوا الطوق فكوا الطوق، اليوم تحت وبكرة فوق. «وينشرون عن طوقنا في صحفهم، ويقولون لنا إن صحف الأحرار، في أنحاء العالم، تنقل عنهم، فيطلق طوقنا الضمير العالمي الذي تحاول الصهيونية أن تطوّقه»[١١].

وتتصدى هذه الأحزاب والتنظيمات للمظالم التي يتعرض لها العرب تحت الاحتلال، وتطالب بحقوقهم في العمل، والتعليم، وهي تحسّ بالمشاكل التي يتعرض لها الشباب. يقول عبدالرحيم، الحزبي، في (الصورة...): «أنا أعرف مشكلتك يا علي. يؤلمني وضعك ووضع مئات الشبان العرب أمثالك. أنت تعرف يا أخي أن الحزب يكرّس لقضية (التعليم) الجامعي اهتماماً ملحوظاً. كل سنة نرسل إلى الدول الاشتراكية عشرات من الطلاب. إنها مساعدة أخوية لا تقدّر بثمن، وهي رمز ماديّ ومعنويّ لتضامن الشعوب الاشتراكية مع شعبنا، غير أن هذا لا يحلّ المشكلة كلها. الحلّ كامن هنا في بلادنا. التعليم حق لنا، وحكومة التجهيل العنصرية تحجب عنا هذا الحق. وفي مثل هذه الحالة لا يمكن أن ننال الحقوق بسهولة، لا بدَّ لنا من نضال متواصل وعنيد، لإجبار الطغاة الحاقدين على فتح الأبواب، فلنقرع بشدة، لنقرع بعنف، وستفتح الأبواب، وستنخلع إذا هي لم تفتح، لأننا أصحاب حق، ولسنا شحاذي صدقة»[١٢].

ولا شكّ أن صحافة هذه التنظيمات تساهم في توعية الناس بحقوقهم، وبما يجب عليهم أن يفعلوه، للحصول على هذه الحقوق، بالاضافة إلى ما تقدمه من كشف لممارسات الاحتلال، ومن زيف لادعاءاته. ويغطي تحقيق صحفي تقوم به جريدة «الاتحاد» معظم رواية (إخطية)، فيكشف الكثير من الظلم الذي يتعرض له العرب تحت الاحتلال، كما يوحي بكثير من الوسائل التي يقاوم بها هذا الظلم.

(٢)

ولأن مثل هذه التنظيمات إنما تستند إلى الفكر كأساس لتحركها، فقد أولت الروايات اهتماماً خاصاً بالفكر، حتى أن إميل حبيبي رمز إليه «بالكنز» الذي يجعل أصحابه يستأسدون على السلطة الجبارة، ولا يهولهم رجل كبير، حتى ولو لم يكن قصير قامة، مع أنهم لا يملكون شروى نقير.

وهذا الفكر يفعل فعله في اتجاهات ثلاثة: أولها في الاصرار على عروبة الأرض، وقدمها، وأصالة أهلها، وحقّهم فيها، وثانيها في توعية الناس بواقعهم وبسبل الخلاص منه، وثالثها في مقارعة دعاوى الصهيونية فكراً وممارسة.

وبالرغم من أن الفكر ينطلق في تأكيد عروبة الأرض من بدهية «ما دام الفرن قائماً في مكانه، فهل نطرح عليه السلام لكي نتأكد منه؟»[١٤] إلا أنه يعزّز هذه البدهية بالتاريخ الذي يهتم به إميل حبيبي

اهتماماً كبيراً في (المتشائل، أخطية) ويحاول سلمان ناطور أن يستلهمه حلاً للغز الذي يعيشه في (أنت القاتل يا شيخ) حين يتساءل: لماذا حوّل سلطان الأطرش الدولة الدرزية التي حرّرها.. إلى سوريا، فأصبح بطلاً سورياً عربياً؟ وهذا السؤال، وغيره، يجعل سهيل عز الدين يدرك لأول مرة، «أن في صدره خنجراً غرزه جده، ومعلمة المدنيات، وما تعلم في دروس التاريخ»[١٥].

وإذا كنا قد أشرنا إلى أهمية الفكر في نشر الوعي، فإن هذا الفكر يكتسب أهمية كبرى وهو يحاور العدو، على مختلف مستوياته. وقد اهتم عدد من الروايات بمثل هذا الحوار، خاصة في الأوساط المثقفة، فكانت روايتا سميح القاسم (الصورة.. وإلى الجحيم) تركزان على هذا الحوار، وركزت عليه رواية سحر خليفة (عبّاد الشمس) في جزء كبير منها، كما أنه يمكن اعتبار التساؤلات التي طرحت في رواية (أنت القاتل..) في إطار هذا الحوار، وإن كان من طرف واحد، كما أن مثل هذا الحوار في (المتشائل واخطية) يأخذ أسلوب النفي، لأن شخصيات أطراف الحوار فيه لا تلتقي.

يبدأ الاتجاه إلى الحوار من منطلق الاحساس بأن من الضروري الوصول إلى الطرف الآخر. لأن الشارع الاسرائيلي لن يفهمنا ونحن بعيدون عنه[١٦]، فقد تم إفساد فكره، لدرجة لا يمكن أن تفسد أكثر مما هي عليه، فلم تبق إلا إمكانية إصلاحها[١٧]، خاصة عند بعض الذين يملكون القدرة على الفهم، إذا عرفوا، لأنهم يحسّون بالفاجعة[١٨]. وهذا الاحساس يجعل صاحبه يدرك أن الانتصار ـ بالحوار ـ على الطرف الآخر، هو انتصار لهذا الطرف أيضاً، وستكون النتيجة هي أن الطرفين سينتصران معاً على مسدس السلطة[١٩]، خاصة وأن جبهة القتال أعمق مما يبدو على السطح، وأكثر تعقيداً وتركيباً. هنا يدور القتال الحقيقي بين الليل والنهار، بين عناصر الزمن ومكوناته المتناقضة، بين الخير الذي في الانسان، والشرّ الذي فيه. بين البناء والهدم، والحب والكراهية.. وهي جبهة يمكن أن ينحاز إلى الخير فيها، ظالم ومظلوم، حين ينتصر على نفسه، بالفهم، حتى يتحقق النصر العظيم، نصر الانسان على ذاته، النصر الذي يقوده إلى كل الانتصارات العظيمة[٢٠]. لذلك فإن المحاور الفلسطيني يطالب الطرف الآخر بأن يفكر بجد في سبيل ما، في ثغرة ما، للخروج من حلقة الدم المفرغة[٢١]. ويظل عبدالرحيم يحلم: من يدري، ربما ذات يوم، تكتشف هي الأخرى (روتي)، الطريق إلى نادينا. وهل ستجد طريقاً آخر، حين تنسدّ كل الطرق المعتمة في وجهها؟[٢٢] مما يشير إلى أن الطرف الذي يبادر إلى الحوار، هو الطرف الفلسطيني، الذي يطالب بالاعتراف له بشيء من العدل، بشبر واحد من العدل، هوية واحدة من العدل، وهي مطالبة مطبوعة بحسّ إنساني، لأنه يعرف أنه إذا لم يحصل على هذا العدل بالحوار، فإنه سيأخذه بكل ثمن[٢٣].

فهل يجد هذا المحاور الانساني حدّاً أدنى مما يطالب به؟

أنه يجد الاستجابة لدى (روتي) ـ مثلاً ـ ولكن الطرف النقيض لها في مجتمعها يقتلها، كما يقتل أية استجابة مشابهة، من طرف لا يملك المسؤولية، ليبقى بعض الأمل في المسحوقين من الطرف الآخر، مثل خضرون في (عبّاد الشمس) حين يوحّدون نضالهم مع العرب، ويتعرضون، مثلهم، لكل ممارسات الارهاب، وتبقى محصلة مثل هذا الحوار سالبة: إن الساعات لا تلتقي، ولقاء العربي «بدنياه»، هو فراق أوري عن إيلانته.

فماذا يبقى أمام الفلسطيني من ثمن، ليأخذ به العدل، سوى الكفاح المسلح؟

(٣)

أمام كلّ الضغوط التي يجدها الفلسطيني من المؤسسة العسكرية للكيان الصهيوني، وفي غياب أي احتمال في قيام هذه المؤسسة بتحسين الظروف، يولد الحقد في القلوب، ويكون واضحاً في نظرات (أم صابر)، التي قطعت ظروف الاحتلال أصابع زوجها، إلى كتف الضابط ونجومه، محملة إياه في سرّها مسؤولية ما حدث لزوجها، وهي تتساءل: كم رجلاً قتلت يا قواد؟ كم معتقلاً خصيت؟ تبتسم؟ لا والله مؤدب. ابن أكابر. وتدفع نقوداً ثمن الفواكه؟ كتر خيرك وخير ديانتك. خلّيها علينا يا أدون (سيد). البلد بلدكم والخير خيركم والدفع ليش؟ تضحكوا علينا؟ الدنيا كلها تضحك علينا، فكيف لا تضحك أنت؟

وباخت الضحكة في وجه الضابط، حين التقت عيناه بعيني أم صابر الحاقدتين، ودمدم كلاماً عبرياً موَجّهاً لزوجته، فلوت المرأة رقبتها وتشاغلت عن الطفل وأمه بانتقاء حبات الاسكدنيا الطازجة[٢٤].

ويتنامي هذا الحقد في صدر سعدية، بعد أن تصادر الأرض التي تحملت كثيراً حتى اشترتها، فتعلنه بوضوح: والله حاسة راسي نافورة نار ودمي حامي ولا الكبريت، والله لو بايدي قنبلة لأنسف العالم، وما أخلّي من ريحة الناس ناس[٢٥].

وبذلك يتضح الخيار الوحيد، لأن «العالم لا يريد أن يفهمنا إلا عبر فوهة الكلاشينكوف»[٢٦].

فمن الذي يقدم على هذا الاختيار؟

أن المناضل، السجين. سعيد الثاني قد قال: الشعب الذي يكافح[٢٧]. وهو بالتالي ذلك الجزء من الشعب، الذي فهم الواقع، وقرر ألا يختبىء..

لكن هذا الجزء الواعي يفهم أن هذا الاختيار يعني الأقدام على القتل. ولأنه يملك حساً إنسانياً جعله يبذل الجهود حتى لا يوصله الاحتلال إلى هذا الاختيار، فإنه يقف طويلاً أمام عملية القتل، ويناقشها. بل ان الحسّ الانساني يظهر، حتى بعد لحظة الحقد، فأم صابر، التقت عيناها بعيني زوجة الضابط بعد اغتياله: النظرة الجزعة تنادي عينيها، تستغيثان. تستصرخان. وشيء ما يزعزع أبواب القلب المغلقة بدون استئذان. وبياض العينين النادبتين يطلق رياحاً باردة كعصف السموم. وترنحت أعماق أم صابر وتمتمت: رحمتك يا رب... ومدت أم صابر يدها نحو المرأة المولولة بالعبرية، ولمست كتفها برفق وهتفت: بعينك الله يا أختي. بعينك الله[٢٨].

وفي الوقت ذاته، ألقت المرأة الاسرائيلية رأسها على كتف عادل الكرمي، فهمس بعطف: بسيدر (لا بأس) ورش ماء على وجه الصبية فتحركت، ولم يلتفت لتحذيرات المارة، ولا لإشاراتهم إلى نجومه، فمدّ

يده نحو النجوم»، انتزعها، ألقى بها على الأرض. حمل الصبية على كتفه. ومشى في عرض الشارع الخالي والمرأة الباكية تتبعه بصمت[٢٩].

حتى أسامة الكرمي، الذي قام بالعملية، سبق له وأن ناقش مسألة القتل وتساءل: هل سأتمكن من القيام بالعمليات المطلوبة؟ وكيف أقتل الناس وأنا أشفق على خروف العيد من الذبح؟[٣٠] ثم عاش حالة صراع لا يرحم، وهو يفكر بوجود عادل الكرمي، ابن خاله، بين العمال العرب، الذين كلّف بمهاجمة الباصات التي تنقلهم[٣١].

لكن أسامة الكرمي، القادم من الخارج، عبر تنظيم قام بتثقيفه وتكليفه، يفهم أنه لا يقوم بعملية قتل مجانية: إنه يدرك ان احتمال إصابة ابن خاله في عملية مقاومة مقررة، هو جزء من عملية التضحية الكبرى التي أخذها على عاتقه[٣٢]، لذلك تصبح العملية لديه مفسّرة: تكسّر الحب عند قدميك يجعل الروح سلعة في سوق الدم. لكنني هنا. في هذي الأرض. وبالرغم من كل شيء... فأنا هنا. وقد عدت. لهذي الصخرة. لهذي الحفرة. وهذه اليد. ملطخة بالدم. لكنها جسر الحرية في بحر الأحزان. وأنا حالياً أرفعها. أطلقها. جناح نسر يجرح حاجز الصوت بنصال حدّه. وصوتي هادر. لعلعة الكاتيوشا والنابالم. فلتهتز الأرض لوقع قدمي إذا مشيت. ولترقبني الأعين الغافلة إذا غفوت. فأنا للصحوة أسري من بين دياجير السخط[٣٣].

إنه، بقناعة، وبوضوح: العنف الثوري.

وحين لا يكون القتل في إطار «العنف الثوري» فان رواية الأرض المحتلة تدينه. إن سهيل عز الدين، حين يتدرّب على القتل، يتحول الأمر لديه إلى هذيان، يتصوّر معه أنه يقتل زوجته وأخته، ويقتل نفسه، فيفقد إيمانه قبل التجربة، ثم يفقد قدرته على الحبّ بعدها: وضغطت على الديك (الزناد). شعرت بحرارة القبلة التي طبعها والدي على جبيني، وشعرت بمرارة دموع أمي الحزينة، وشعرت بلمسات إيمان (أخته) الصغيرة، لكن سناء (حبيبته) لم تخطر ببالي. لقد فقدتها في لحظات لأنني قتلت نفسي البريئة التي أحبّتها حبّاً شديداً، فكيف سأعود إليها إنساناً آخر؟ كيف ستحبني بعد اليوم[٣٤].

وتبدو إنسانية هذا الموقف إذا ما قورن بموقف مشابه في رواية (ولدان للموت) التي كتبتها يائيل دايان.. ففيها «اكتشف دانيال السهولة التي يقتل بها. لم يكن يحسّ بالبهجة ولا بالكراهية حينما كان يقتل. ولم يكن لحتى يشغل باله بالمبررات الخلقية التي تجعله يضغط بأصبعه على الزّناد. لقد أصبح القتل وظيفة بالنسبة له، وهذا هو كلّ ما هنالك. لم تكن ترهق دانيال أية مسؤولية من أي مستوى. ولم تكن تربطه بالوحدة التي انضم إليها غير صداقته بشابين، أحدهما يمني والآخر هنغاري. وفي إحدى الغارات قتل الشابان. وأحسّ دانيال لأول مرة بذلك المذاق الكريه للموت. وأحسّ للمرة الأولى أيضاً بالخوف، وان البقاء على قيد الحياة يجب ألا يؤخذ كقضية ثابتة. وحينما انغمس دانيال في غمرات معركة جديدة، لم يكن القتل بالنسبة له عملاً وظائفياً هذه المرة. لقد أصبح الحقد كمسحوق البارود تحت أظافره»[٣٥].

هذا النوع من «القتل» مدان في رواية الأرض المحتلة، التي حدّدت للصدام شروطاً تلحقه بالعنف الثوري، الشرعي تماماً في نضال الشعوب. وحين يجيء العنف على شكل تمرّد فردي غير منظم، فإن الرواية تناقشه، ويقدّم إميل حبيبي صورة من ذلك. وهو يجري الحوار بين (ولاء) ووالدته في «المتشائل»، بعد أن أعلن ولاء العصيان المسلّح على الدولة. قالت والدته: الموت ليس منفذاً بل نهاية. وحاورته، لندرك أن الكاتب يضع وجهة نظره على لسانها:

- لو كنا أحراراً، يا ولدي، ما اختلفنا. لا أنت تحمل سلاحاً ولا أنا أدعوك إلى احتراس. إنما نحن نسعى في سبيل هذه الحرية.

- كيف؟

- مثلما تسعى الطبيعة في سبيل حريتها. فالفجر لا يطلع من ليله إلا بعد أن يكتمل ليله. والزنبقة لا تبرعم إلا بعد أن تنضج بصلتها. الطبيعة تكره الاجهاض يا ولدي.

- سئمت خنوعكم.

- لدينا فتية وفتيات لم يخنعوا. فأحذُ حذوهم. تحملوا طول ليل. فحملوا الشمس فوق جباههم. ما استطاعوا إخراجهم من أرض إلا إلى زنزانة. وما هدموا عليهم بيتاً إلا بعد أن هدموا عليهم أسطورة. إنك يائس يا ولدي.

- لا أرى حولي سوى الظلام.

- في الكهف.

- حياتي كلها كهف.

- فأنت لا تزال في البصلة تتبرعم. أخرج إلى نور الشمس.

- أين مكاني تحت الشمس؟

- الدنيا بخير، يا ولدي. فكم من شعب انتزع حريته. وسيأتي موسمنا.

هذا العنف الثوري إذن، لا يجيء عفواً، انه بحاجة إلى إعداد حتى ينضج، فيؤتي ثماره الحقيقية، عندما تبدأ الثورة.

(٣)

حين يصل الواقع إلى حدّ أقصى يجب أن يكون فيه اختيار: إما أن يبقى الانسان على الخازوق، أو ينزل إلى الشارع، فإن هذا يعني أن جوّ الثورة قد نضج، وبات الباب مفتوحاً للشعب غير النائم أن يشارك فيها بكل فئاته. وقد سجّلت الروايات هذه المشاركة بشكل غطّت فيه كل فئات الشعب. وإذا كان الدور الأساسي في هذه الثورة، ضمن ظروف المجتمع، منوطاً بالرجال، فان الأطفال لم يحرموا من دورهم، حين تتيح لهم هذه الظروف دوراً، وثورة الحجارة، التي سجّلت كثورة فريدة في التاريخ، كان أغلب الذين أشعلوها ـ وما زالوا ـ من صغار السن، الذين يخرجون من كل بيت، ويقفون في الزوايا المعتمة يستفزون الجنود بالشتائم والضحك، ويربط أحدهم علبة بندورة بذنب قطة ويطلقها[٣٧]، فيطاردهم الجنود، ويصبح السجن للفتيان والصبيان، ويتطور الأمر، ويقف الأولاد وفي أيديهم حجارة أحسن استغلالها يتحينون الفرصة. وبمجرد أن تتفرق النسوة، ويبقى الجنديان وحدهما على الرصيف، يشتغل الرشق، وتنهال الحجارة، وتنشق

الأرض عن مئات الأولاد. . ويضحي الشارع جبهة[٣٨].

ولا يقتصر الأمر على الأولاد الصبيان، فالبنات لهن دور أيضاً. وبنت أبو سالم رشقت في المظاهرة حجراً فتح نافوخ الضابط، فلحقوها من شارع إلى شارع، طارت مثل العصفورة لحقوها في الزقاق، وطلع عليهم بقية العفاريت، وهات يا حجار وضرب بالمقالع[٣٩].

وتشارك المرأة في هذا الصراع، فحين يهجم جنديان على جمع النسوة الذي يستفزهما بهدوئه، تمتدّ أيدي النسوة وألسنتهن، ويندلع الصياح[٤٠].

وقد تتجمع كل هذه الفئات معاً. . ليتحول صمودها إلى عصيان، يبدأ على شكل هدير. وينتهي إلى صدام يلعلع فيه الرصاص. . وفي نهاية عباد الشمس واحد من المشاهد الموحية: صاحب سعدية: «ابني». واندفعت تركض، تقفز الأدراج، تفتح باب الحاكورة، تصرخ: «ابني». ولحقت بها النسوة، كل واحدة تصرخ: «ابني». وفوق الطرقات المتربة ركضت أقدام النسوة. انفتحت أبواب الجند. رصاص. صياح. عويل الأطفال يشدون الأذيال. تحلقن حول الأسوار. خرج الضابط. . . هجمت عليه سعدية. صفعها. تناثر شعرها. «ابني». ضربة فوق رأسها أفقدتها الصواب فتوحشت. صفعة ثانية، ثالثة. تراجعت خطوات ثم الهجوم. . . هتف الصوت من وراء السور: بالحجارة، اضربوا. وبدأت سعدية تضرب. والنسوة تضرب. . . اختبأ الجند. حوصر آخرون وهم فوق الأسوار. حجر أصاب أحدهم فهوى. . . اشتعل الدم في الجبهة[٤١].

إضافة إلى مشاركة كل الفئات، فإن المقاومة تستخدم كل الوسائل المتاحة، من الحجر، إلى القنبلة، وتستخدم ذكاءها في اختيار هذه الوسائل، وإذا كانت البنات المقدسيات قد اعتقلن وعذبن بتهمة تهريب السلاح أو التستر على تهريبه، وحشرن مع نساء ساقطات[٤٢]، في (سداسية الأيام الستة)، فإن الفتاة التي سمعها أسامة الكرمي تصيح تحت التعذيب في (الصبار) تهرب الشيفرة تحت الباروكة[٤٣]، حتى توصل الأوامر التنظيمية إلى عناصر المقاومة، وهي شبيهة بالأوامر التي حملها معه أسامة الكرمي من تنظيمه، للقيام بعمليات فدائية، كانت أولاها عملية اغتيال الضابط، عندما فجأة، كأنما انشقت الأرض عنه، قفز شاب ملثم الرأس بكوفية بيضاء. رفع يده اللامعة كالبرق، وهوى بها على مؤخرة رأس الضابط. فغاص الخنجر في العنق حتى النصاب. أطلق الضابط آهة عميقة، وهوى على صندوق الاسكدنيا والدم يتدفق كالنافورة[٤٤].

هذا الشاب الملثم، تحوّل إلى رعب متصل للكيان الصهيوني، لدرجة أن حياته صارت تصاب بجلطة، حين يتصوّر وجود مثل هذا الشاب الملثم في مكان، هي الجلطة التي وصفها إميل حبيبي في (اخطية) بتفصيل دقيق يشير إلى الشلل الذي تسببه المقاومة للكيان الصهيوني.

وهذا الشاب الملثم، يتحرك في كل مكان، وفي كل وقت. . فهو (إلى الجحيم. . .) يخلق انفجاراً هائلاً يجعل مئات من الخلق تتدافع وتتراكض في شتى الاتجاهات، وهو في (الصبار) يعلن عن نفسه كل وقت، حتى يفهم الناس أن الرفاق يعملون، من خلال سماعهم لأصوات النيران، ورؤيتهم للكشافات، وسيّارات الجيش تحاول أن تفعل شيئاً[٤٦].

وهذا الشاب الملثم، قد يعمل وحده، وقد يعمل مع الرفاق، حين تكون العملية التي تمّ التخطيط لها أكبر من طاقته، مثل عملية نسف باصات ايجيد، التي شارك فيها أسامة الكرمي، وأمر قائدها أبو الرعد في الوقت المناسب: «إضرب. . فانهمر الرصاص، وانفجرت قنبلة بالقرب من الشاحنة، فتناثرت الشظايا في كل اتجاه، وانفجرت الاطارات، ودارت الشاحنة حول نفسها. . وصاح أسامة: إضرب. . . الباص الثاني. وانهمر الرصاص، وتطايرت شظايا الصخور، وانفجرت إطارات الباص، وتوقفت الباصات الأخرى، واستدارت شرقاً، وولت الأدبار»[٤٧].

وهذا الشاب الملثم يحسن الاختفاء: فأسامة الكرمي استطاع أن يختفي بعد اغتيال الضابط، والفدائيون في (عبّاد الشمس)[٤٨] استطاعوا أن يختفوا بعد عملية فرض العدو بسببها حظر التجول على نابلس، وحسن الكسيح يستطيع أن يختفي بعد أن أحدث الانفجار[٤٩]، وكل واحد من هؤلاء «الملثمين» يجد من يساعده: أسامة الكرمي ساعده ابن خاله باسل، والفدائيون وجدوا ترحيباً من سعدية وخضرة، وحسن وجد مساعدة من الراوي في (إلى الجحيم. . .). . . ومثل هؤلاء يجد ولاء أمه تنضم إليه في (المتشائل)، حتى تحميه[٥٠]، بحبّها من ناحية، وبالوعي الذي كانت تحاول أن تنقله إليه من ناحية أخرى، حتى يتحوّل من التمرد العفوي، إلى المقاومة الحقيقية.

(٤)

كان موقف باقية، والدة ولاء واضحاً من تمرّده الفردي، ومن قلة السلاح الذي يملكه، والذي لا يزيد على رشاش قديم، وقد أشارت إلى أنه تعجّل الأمر، في حوارها معه. فهل تصورت أن الحب، والرشاش القديم الآخر، قادران على حمايته، أم أنها اختارت طريقه الذي لا تقرّه؟

إن الإجابة على السؤالين ستكون بالنفي، عندما نعرف أنهما استطاعا الفرار، ولم يعثر لهما على أثر، وأن البحث عنهما، في الليل ثم في النهار، لم يكشف عنهما حينين، ولم يكشف عن جثتيهما، فبقي مصيرهما سراً غامضاً. . . ويجب أن يظلّ سراً مصوناً من أسرار الدولة[٥١].

هذا السرّ لا يحتاج إلى كثير من التأمل حتى يفهم، بعد أن يعلم «المتشائل» أن هناك من بين كتائب الفدائيين كتائب باسم الطنطورة، التي تنتسب إليها زوجته. لقد ذهبت باقية وولدها ولاء للانضمام للمقاومة المنظمة إذن، فكانت في ذلك إشارة إلى وحدة النضال، وهي إشارة سبق أن اتضحت عبر أخوة السجن[٥٢] في المتشائل، وعبر انضمام زهدي إلى مقاومة العدو، دفاعاً عن الفدائيين في (الصبار)[٥٣]، لكنها هنا تمتد إلى خارج الوطن المحتل، لتتصل بمن يعملون على تحريره في كل مكان، بهدف توحيد النضال باتجاه الهدف الواحد، حتى يتحول هذا النضال إلى ما يشبه عقد الزواج الذي تحولت إليه رسالة يعاد السرية إلى «المتشائل»[٥٤].

ووحدة النضال هذه، كما تشير الروايات، ليست جديدة، ورواية

(اخطية) تروي طرفاً منها وهي تتحدث عن عطية «من ابناء الجنوب اللبناني، وأصبح، فيما بعد، دباغاً في «سوق الشام» في حيفا. وشارك في النضال الفلسطيني. بخطه الجميل، الذي كان ينقش به الشعارات النارية على الجدران، قبل أن يضطر إلى الالتجاء إلى وطنه[٥٥]، ولذلك ليس غريباً أن ترتفع الدعوة إلى توحيد نضال الشعب، في الداخل والخارج، وهي الدعوة التي حولت (سداسية الأيام الستة) إلى نشيد موحّد للمقاومة[٥٦].

تبدو وحدة النضال واضحة في لوحتين من لوحات (السداسية)، الأولى هي لوحة (العودة) حين توحد المظاهرة أطرافاً مشاركة فيها من الأرض المحتلة في النحس الأول والنحس الثاني، كما توحدها قصيدة شاعر مدفون في الناصرة، يكرم شعره ضريح شهيد في القدس[٥٧]، لتتشكل الوحدة الحميمية والحارة التي تكونت بفعل المواجهة[٥٨]، أما الثانية فتظهر في لوحة (الحب في قلبي)، حين تلتقي الفتاة (فيروز) في السجن، فتاة من حيفا، يعني عربية من «إسرائيل»، متهمة بالاتصال بالعدو، فتصبح صديقتها، وتتحول هذه الصداقة إلى تهم مليئة بالتشويهات، نشرها العدوّ في صحفه، حول «الاتفاق مع الفتاة الحيفاوية على تنظيم خلية سرية داخل إسرائيل»، وهو محض تشويه لصداقة بريئة بين فتاتين من شعب واحد، اجتمعتا، بعد فراق طويل، تحت سقف واحد، سقف القاووش[٥٩].

وحدة النضال هذه، هي التي تقبلها روايات الأرض المحتلة، في الوقت الذي ترفض أية وحدة ضمن شروط الاحتلال، ففي لوحة (وأخيراً نوّر اللوز) لم يستطع الأستاذ «م» أن يستعيد وحدة ذاته باستعادة ذاكرته، لأن الذي فتح له الطريق إلى طلعة اللبن، هو الاحتلال[٦٠]. كما أن مسعود لم تكن سعادته كاملة بابن عمه القادم من الضفة، لأنه بقي مهدداً بانسحاب الاحتلال منها، ومن ثم العودة، كما كان، بدون ابن عم[٦١]. والعائدون عن طريق الجسر المقدس، في زيارة، هم مجرد أشباح هائمة[٦٢]، لن تستطيع الاهتداء إلى الكنوز التي حفظتها لهم (أم الروبابيكا)، وعودة جبينة الجديدة إلى قريتها، ضيفة زائرة بعد غياب، لم تعد الحياة إلى عين الماء، لأنها أجلت ذلك إلى يوم آخر[٦٣]، لا تكون العودة فيه بقدرة الاحتلال، لأن العودة الحقيقية تعني: إما أن يلتقي ميع المقيمين بجميع اللاجئين، أو أن تذهب تصاريح الاحتلال إلى جهنم[٦٤].

إن اللقاء المنشود، هو اللقاء الذي ينبع من قناعة بالنضال، لا من فردية. تجعل كل واحد منطوياً على عفريته.. فما المانع من أن تلتقي، في لحظة واحدة، عفاريتنا، وان تتفق، فيما بينها.. على هذا اللقاء؟[٦٥].

أنه الحلم: وفي لحظة من اللحظات، في شارع من شوارع حيفا، المكتظة بالسابلة، وبالسيارات، خرجت العفاريت من الصدور، والتقت في وادي عبقر، في رائعة النهار: كل يسأل عن اخطيته كيف تركها، ولماذا تركها، وكيف حالها من بعده[٦٦]. واخطية هي من بقي من شعب فلسطين العربي، تحت الاحتلال، يعاني كساحاً أول الأمر (فاخطية كسيح، وحسن كسيح) وصمتا (فاخطية خرساء) حتى اكتشف انه الكساح المؤقت، في العقول والقلوب، ووجد من يقف معه، لكن في إطار وحدة النضال.

لكن لقاء المناضلين، على أكثر من مستوى، لا يكون قاصراً على لقاء من بقي تحت الاحتلال بمن خرج ليعود، ولكنه يتسع ليمتد إلى كل عربي يوصله الوعي إلى فهم خطورة العدو الصهيوني على كامل وطنه، الذي يطمع في بعضه احتلالاً، ويطمع في بعضه الآخر سيطرة، بسبب ارتباطه بالامبريالية، وبزعيمتها أمريكا.

ولسبب هذا الارتباط فإن في العالم أحراراً يستطيعون أن يفهموا القضية النضالية، وأن يقفوا معها، فكونراد، الألماني الغربي، يؤكد لصديقه العربي في موسكو: كن واثقاً أنني أفهمكم.. كن واثقاً[٦٧]. وصحف الأحرار، في أنحاء العالم، تنقل عن صحف المناضلين، لتطلق الضمير العالمي من طوق الصهيونية[٦٨]، كما أن الدول الاشتراكية، تستقبل عشرات من الطلاب الذين يسد الاحتلال الأبواب في وجه تعلمهم، مساعدة ـ منها ـ أخوية، لا تقدر بثمن، وهي رمز مادي ومعنوي لتضامن الشعوب الاشتراكية مع شعبنا[٦٩]..

ورغم ما يمنحه مثل هذا الاتصال، مع الأمم التي تساند شعب فلسطين العربي في نضاله من أجل التحرر، من امكانيات للتعبير، إلا أن الرواية في الأرض المحتلة، لم تركز على ذلك حتى الآن، لأن تركيزها الأساسي كان على الواقع الذي يعيشه العربي تحت الاحتلال، وعلى توجيهه نحو التصدي لهذا الواقع، إلا في بعض الاشارات التي توحي بالأمل، من خلال نضالات تلك الأمم، كإشارة سروة إلى ثورة اكتوبر[٧٠]، وإشارة سهيل عز الدين إلى حرب فيتنام[٧١].

هوامش

(١) الصورة الأخيرة في الألبوم ص ٥٤.
(٢) سداسية الأيام الستة ص ٥١.
(٣) الصورة الأخيرة في الألبوم ص ٦١.
(٤) إلى الجحيم أيها الليلك ص ٩٩.
(٥) شكري عزيز ماضي ـ انعكاس هزيمة حزيران على الرواية العربية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت ١٩٧٨ ص ١٧٣.
(٦) الصبار ص ١٧٩ ـ ١٨٢.
(٧) المتشائل ص ١٠٨.
(٨) عباد الشمس ص ٨٠.
(٩) المتشائل ص ١٠٨.
(١٠) عباد الشمس ص ١٠٥.
(١١) المتشائل ص ١٨١.
(١٢) الصورة الأخيرة في الألبوم ص ٥٩.
(١٣) المتشائل ص ١٣٣.
(١٤) اخطية ص ٩١.
(١٥) أنت القاتل يا شيخ ص ٣٨.
(١٦) عباد الشمس ص ١٠٦.
(١٧) الصورة الأخيرة في الألبوم ص ٣٢.

(١٨) عباد الشمس ص ١٢٦.
(١٩) الصورة الأخيرة في الألبوم ص ٥٤.
(٢٠) إلى الجحيم أيها الليلك ص ٩١ ـ ٩٢.
(٢١) المصدر السابق ص ١٥.
(٢٢) الصورة الأخيرة في الألبوم ص ٤٩.
(٢٣) إلى الجحيم أيها الليلك ص ١٥.
(٢٤) الصبار ص ١٧٠ ـ ١٧١.
(٢٥) عباد الشمس ص ٢٧٤.
(٢٦) إلى الجحيم أيها الليلك ص ٨٢.
(٢٧) المتشائل ص ١٩١.
(٢٨) الصبار ص ١٧٢.
(٢٩) المصدر السابق ص ١٧٢ ـ ١٧٣.
(٣٠) المصدر السابق ص ٨٧.
(٣١) المصدر السابق ص ٩٥.
(٣٢) المصدر السابق ص ٩٥.
(٣٣) المصدر السابق ص ١٧٦.
(٣٤) أنت القاتل يا شيخ ص ٨٠ ـ ٨١.
(٣٥) معين بسيسو، نماذج من الرواية الاسرائيلية المعاصرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٠ ص ٥٢.
(٣٦) المتشائل ص ١٤٦ ـ ١٥٤ (مقاطع).
(٣٧) الصبار ص ١١٢.
(٣٨) عباد الشمس ص ٢٤٩.
(٣٩) المصدر السابق ص ٤٩.
(٤٠) المصدر السابق ص ٢٤٩.
(٤١) المصدر السابق ص ٢٨٧ ـ ٢٧٩.
(٤٢) سداسية الأيام الستة ص ٤٥.
(٤٣) الصبار ص ١٣.
(٤٤) المصدر السابق ص ١٧١.
(٤٥) إلى الجحيم أيها الليلك ص ١٠٣ ـ ١٠٤.
(٤٦) الصبار ص ١٠٩.
(٤٧) المصدر السابق ص ١٩٣.
(٤٨) عباد الشمس ص ٩٦.
(٤٩) إلى الجحيم أيها الليلك ص ١٠٤.
(٥٠) المتشائل ص ١٥٤.
(٥١) المصدر السابق ص ١٥٤ ـ ١٥٥.
(٥٢) المصدر السابق ص ١٧٢.
(٥٣) الصبار ص ١٩٧.
(٥٤) المتشائل ص ١٠٩.
(٥٥) اخطية ص ٥٢.
(٥٦) الياس خوري، تجربة البحث عن أفق، مركز الابحاث، بيروت ١٩٧٤ ص ٤٨.
(٥٧) سداسية الأيام الستة ص ٣٤.
(٥٨) فاروق وادي ـ مصدر سابق ص ١٠١.
(٥٩) سداسية الأيام الستة ص ٥١.
(٦٠) المصدر السابق ص ١٦.
(٦١) المصدر السابق ص ١٢.
(٦٢) المصدر السابق ص ٢٧.
(٦٣) المصدر السابق ص ٤٠.
(٦٤) الصورة الأخيرة في الألبوم ص ١٤.
(٦٥) اخطية ص ٩٣.
(٦٦) المصدر السابق ص ٩٣ ـ ٩٤.
(٦٧) إلى الجحيم أيها الليلك ص ٨٢.
(٦٨) المتشائل ص ١٨١.
(٦٩) الصورة الأخيرة في الألبوم ص ٥٩.
(٧٠) اخطية ص ٨٢.
(٧١) أنت القاتل يا شيخ ص ٣١.

دار الآداب تقدم

سلسلة بطولات عربية

- **لبيك ايتها المراة**، بقلم سليمان العيسى.
- **الحدث الحمراء**، بقلم سليمان العيسى.
- **ابن الصحراء**، بقلم سليمان العيسى.
- **صلاح الدين الايوبي**، بقلم فالح فلوح.
- **زنوبيا فارسة الصحراء**، بقلم فالح فلوح.
- **سيف الدولة الحمداني**، بقلم فالح فلوح.
- **معركة الزلاقة**، بقلم فالح فلوح.

دار الآداب ــ شارع اليازجي ــ بناية مركز الكتاب ــ ص. ب ٤١٢٣ ــ تلفون ٨٠٣٧٧٨